



الموقع الرسمي للأستاذ
الدكتور محمد الناصري



العلاقة مع الآخر

قراءة في الأبعاد الثقافية والحضارية المفسرة

- ◀ العلاقة مع الآخر: قراءة في الأبعاد الثقافية والحضارية المفسرة (مقالة)
- ◀ محمد الناصري، أستاذ الفكر الإسلامي، جامعة السلطان مولاي سليمان، المغرب.

إن موضوع العلاقة مع الآخر ليس بمجديد على الساحة الفكرية بصيغته هذه أو بصيغ أخرى مقاربة له، فالموضوع متواتر ومتكرر خاصة في السنوات الأخيرة، وذلك في مختلف وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية، وكذا في المنتديات الفكرية والمحافل السياسية، فهو دائم التكرار والمناقشة وهو مطروح على الجميع.

ولقد شكلت الأبعاد الثقافية والحضارية قطب الرحى في موضوع العلاقة مع الآخر، إذ هناك بروز واضح للبعد الثقافي والحضاري في العلاقات الدولية، واتساع موضعه من الأبعاد الأخرى السياسية والاقتصادية والعسكرية، ولأدل على ذلك إعلان سنة 2003 من طرف هيئة الأمم المتحدة كسنة لحوار الحضارات. وإقرار منظمة اليونسكو خلال مؤتمرها العام الثالث والثلاثين في باريس سنة 2005، سنة "التنوع الثقافي".

بمعنى آخر إن الخبرات الأكاديمية وازدياد زخمها خلال عقد سابق من تسعينات القرن المنصرم وحتى الآن تشهد بأن موضوع العلاقة مع الآخر؛ ممثلاً في البعد الثقافي والحضاري في العلاقات الدولية حاضر ومطروح بقوة وعلى كل المستويات الرسمية وغير الرسمية.

أمام هذا الزخم الفكري والاهتمام الرسمي الذي أثاره الموضوع، تثور عدة تساؤلات في ذهن الباحث، من قبيل: هل من منظور إسلامي في تحليل العلاقات الدولية؟ ما موقف الفكر الإسلامي من العلاقة مع الآخر؟ ما هي أسباب الاهتمام بالعلاقة مع الآخر في بعدها الديني والثقافي والحضاري؟.

الحق أن البحث في مجال العلاقات الدولية، وبالنظر إلى مآلات الأوضاع في العالم المعاصر، يجعل الأسئلة الثلاثة المطروحة واردة وطبيعية بل ضرورة أيضاً قبل الخوض في تفاصيل هذا الموضوع الشائك، ولذلك فإننا نستحسن التريث قليلاً عند كل سؤال منها، مقترحين الإجابة عنها في الترتيب العكسي لورودها، فنبتدئ إذن بالوقوف على الأسباب وراء تزايد الاهتمام بموضوع

العلاقة مع الآخرين في بعدها الديني والثقافي والحضاري. ونختار للإجابة عن هذا السؤال، مساهمة الأستاذة: نادية محمود مصطفى¹ في هذا المجال، إذ ذهبت إلى تحديد ثلاث مجموعات من الأسباب تبرز صعود الاهتمام بالعلاقة مع الآخر في الأبعاد الثلاثة الديني والثقافي الحضاري: "المجموعة الأولى: تتصل بحالة التفكير والبحث في مجال العلاقات الدولية والثانية: تتصل بالتغيرات التي يمر بها الغرب في علاقته بالعالم، والثالثة: تتصل بالتحديات التي تواجه العالم الاسلامي"².

أ- في تحليلها للأسباب المرتبطة بالمجموعة الأولى، تشير نادية محمود مصطفى إلى "ان الدراسات النظرية في عالم الغرب، وعالم الآخر ليس ترفاً، كما انها ليست مجرداً منفصلاً عن الواقع، ولكن دائماً، كان التنظير، وكانت الأفكار التي تقدم ضمن الدوائر البحثية والأكاديمية والفكرية الغربية متصلة من قريب أو من بعيد بمجال الحركة"³. إذ "أصبح كل شيء خاضعاً للدراسة والتحليل ولعل المختبرات التي تخضع لها القضايا الفكرية والثقافية، وجميع الدراسات الإنسانية اليوم توازي المختبرات التي تخضع لها العلوم التجريبية، إن لم تكن أكثر دقة واهتماماً حيث لم يعد مجال للكسالى والنيام، والمتخاذلين والأغبياء... ففي القارة الأمريكية وحدها حوالي عشرة آلاف مركز للبحوث

¹ - نادية محمود مصطفى، أستاذة العلاقات الدولية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة، مديرة مركز البحوث والدراسات السياسية، والمشرفة على برنامج حوار الحضارات التابعين لنفس الجامعة، المشرفة على مشروع العلاقات الدولية في الاسلام، الذي أثمر انتاجاً أكاديمياً في أربعة عشرة جزءاً يعد الأول من نوعه في مجال العلاقات الدولية من منظور اسلامي، شارك فيه أزيد من 28 باحثاً متخصصاً واستغرق إنجازه ما يقارب عشر سنوات والمشروع من منشورات المعهد العالمي للفكر الاسلامي، القاهرة، ط1، 1996.

² - نادية محمود مصطفى، العلاقات بين الحضارات، الموسم الثقافي لمركز الدراسات المعرفية، القاهرة، ط1، 2003/2002، ص50.

3 - نفسه، ص51.

والدراسات - القسم الكبير منها متخصص بشؤون العالم الإسلامي- وظيفة هذه المراكز، تتبع ورصد كل ما يجري في العالم، ومن ثم دراسته وتحليله، مقارنة مع أصوله التراثية التاريخية، ومنابعه العقائدية، ثم مناقشة ذلك مع صانعي القرار لتبني على أساسه الخطط وتوضع الاستراتيجيات الثقافية والسياسية وتحدد وسائل التنفيذ"⁴. ومن أبرز الأفكار التي خرجت من رحم تلك المراكز، نظرية "فوكوياما" عن "نهاية التاريخ" ونظرية هينتنتجتون عن "صدام الحضارات"⁵.

أفكار فوكوياما بدأت كمحاضرة في مركز "جون أولين" التابع لجامعة شيكاغو ثم تحولت إلى مقال ظهر في مجلة "ناشال انترست" صيف سنة 1989 بعنوان "هل هي نهاية التاريخ؟" ثم كان الكتاب الذي ظهر عام 1992⁶.

ملخص أفكار فوكوياما هو: أن السنوات الأخيرة قد شهدت "إجماعاً في جميع أنحاء العالم حول شرعية الديمقراطية كنظام للحكم بعد أن لحقت الهزيمة بالإيديولوجيات المنافسة مثل: الملكية الوراثية والفاشية، والشيوعية في الفترة الأخيرة"⁷. بالإضافة إلى "أن الديمقراطية الليبرالية قد تشكل نقطة النهاية في التطور الإيديولوجي للإنسانية والصورة النهائية لنظام الحكم البشري

4 - عمر عبید حسنة، من مقدمة كتاب عبد العظيم محمد الديب، المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الاسلامي، كتاب الأمة، دولة قطر، ع28، ط1، ربيع الثاني 1411هـ، ص9.

5 - وقع الاختيار على هاتين النظريتين لما أثارته من ردود ونقاشات واسعة فقد أورد محرر مجلة الشؤون الخارجية أن مقالة هينتنتجتون قد حركت نقاشات تفوق ما أثاره أي مقال نشره منذ سنة 1940 إلى اليوم حتى سنة 1993 وكذلك الشأن بالنسبة لمقالة فوكوياما. راجع مجلة العربي، الكويت، عدد 558، ربيع الأول 1426هـ، ما ي2005م، ص20 وما بعدها.

6 - ظهرت الطبعة الأولى لترجمة كتاب فوكوياما سنة 1993م/ 1413هـ تحت عنوان نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة، حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر مصر.

7 - فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر، ترجمة حسين أحمد أمين، مركز الأهرام للترجمة والنشر، مصر، ط1، 1993، ص8.

وبالتالي فهي تمثل "نهاية التاريخ"⁸. ويؤكد فوكوياما أن أنظمة الحكم الأخرى شابتها عيوب كثيرة وتناقضات داخلية أدت إلى سقوطها، وهكذا فبالنسبة إليه تبقى الديمقراطية الليبرالية هي المثل الأعلى والأيديولوجيا الوحيدة التي يمكن أن تقنع العالم كله بصلاحياتها لأنها مبنية على الديمقراطية والحرية الفردية وسيادة الشعب"⁹، ولأن فوكوياما يعرف أكثر من غيره -بحكم ليبراليته- أن كلمة الرأسمالية قد اكتسبت عبر السنين مجموعة من الدلالات المستهجنة لذلك عمد إلى استبدالها بتعبير أقل استهجاناً وأكثر تقبلاً -اقتصاديات السوق الحرة.

كما يشير فوكوياما إلى "أن الاسلام يشكل إيديولوجيا متسقة ومتماسكة وأن له معايير الأخلاقية الخاصة به ونظريته المتصلة بالعدالة السياسية والاجتماعية"¹⁰. ويتوفر في نظره "على جاذبية يمكن أن تكون عالمية، داعياً إليه البشر كافة باعتبارهم بشراً لا مجرد أعضاء في جماعة عرقية أو قومية معينة"¹¹ مما مكنه "من الانتصار على الديمقراطية الليبرالية في أنحاء كثيرة من العالم الاسلامي"¹² وبذلك فإنه "يشكل خطراً كبيراً على الممارسات الليبرالية حتى في الدول التي لم يصل فيها إلى السلطة السياسية بصورة مباشرة"¹³ مستدلاً بحالة العراق إذ يقول: "وقد تلا نهاية الحرب الباردة في أوروبا على الفور تحدي العراق للغرب، وهو ما قيل (عن حق وغير حق) إذ الاسلام كان أحد عناصره"¹⁴.

8 - نفسه، ص 8.

9 - فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر، م.س.، ص 10

10 - نفسه، ص 56.

11 - فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر، م.س.، ص 56.

12 - نفسه، ص 56.

13 - نفسه، ص 56.

14 - نفسه، ص 56.

إلا أن فوكوياما يؤكد أن زمن التوسع الاسلامي قد ولى لأنه ليس بوسعه تحدي الديمقراطية الليبرالية، خاصة أن هذه الأخيرة اجتذبت لنفسها أنصارا عديدين وأقوياء من بين المسلمين يقول فوكوياما: "فإن كان بوسع الاسلام أن يكسب من جديد ولاء المرتدين عنه، فهو لن يصادف هوى في قلوب شباب برلين أو طوكيو أو موسكو، ورغم أن نحو بليون نسمة يدينون بدين الاسلام (أي خمس تعداد سكان العالم) فليس بوسعهم تحدي الديمقراطية الليبرالية في أرضها على المستوى الفكري، بل يبدو أن العالم الاسلامي أشد عرضة للتأثر بالأفكار الليبرالية على المدى الطويل من احتمال أن يحدث العكس حيث إن مثل هذه الليبرالية قد اجتذبت لنفسها أنصارا عديدين وأقوياء من بين المسلمين على مدى القرن والنصف القرن الأخيرين"¹⁵.

أما بالنسبة لنظرية هنتنجتون فقد بدأت هي الأخرى كمحاضرة بمعهد الاقتصاد الأمريكي في 18 أكتوبر 1992، بعنوان "صدام الحضارات" ثم تحولت إلى مقال نشرته فصلية "فورين أفيرز" في سنة 1993 تحت نفس العنوان. ثم كان الكتاب الذي حمل عنوان صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي سنة 1996¹⁶.

"وتختلف المحاضرة عن المقال في أنها قصرت صدام الحضارات بين العالم الاسلامي والعالم الغربي في حين توسع في مقاله -وكذا كتابه- جليا لرداء الموضوعية إلى صدام بين الغرب والآخرين وبخاصة العالم الاسلامي والعالم الكونفوشيوسي"¹⁷.

15 - نفسه، ص 56-57.

16 - وقد ظهرت الترجمة العربية للكتاب سنة 1999، وترجمه كل من مالك عبيد أبو شهيو ومحمود محمد خلف، عن الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان ليبيا.

17 - حسن أوريد، الاسلام والغرب والعولمة، منشورات الزمن، المغرب، ط1، شتنبر 1999، ع 6، ص 36، وقد ذكر أوريد أنه كان من الحاضرين للمحاضرة.

وركز هنتنجنون في كتابه على " أن ميزان القوى بين الحضارات يعرف تغيرا كبيرا فالغرب يعرف تدهور بينما الحضارات الآسيوية تبسط قوتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية أما الاسلام فيعرف انفجارا سكانيا، وبموازاة ذلك يتشكل نظام عالمي جديد حيث تتعاون المجتمعات التي تجمع بينها علاقات قري ثقافية.

بينما ستندشب صراعات بين الشعوب التي تنتمي إلى كيانات ثقافية مختلفة "وزعم أن حضارة الغرب هي الحضارة العالمية ومن تم سيضعه ذلك بشكل متزايد في حالة صراع مع الحضارات الأخرى خاصة مع الحضارتين الاسلامية والكونفوشوسية¹⁸.

ويرى هنتنجنون أنه على مدار أربعة عشر قرنا كانت العلاقة بين الاسلام والمسيحية عاصفة غالبا، وأن صراع القرن العشرين بين الديمقراطية الليبرالية، والماركسية اللينينية ليس سوى ظاهرة سطحية زائلة إذ ما ما قورن بعلاقة الصراع المستمر والعميق بين الاسلام والمسيحية، ويدعم هنتنجنون هذا الطرح بقوله "أن الاسلام هو الحضارة الوحيدة التي جعلت بقاء الغرب موضع شك"، ويضيف قائلا "المشكلة المهمة بالنسبة للغرب ليس الأصولية الاسلامية بل الاسلام فهو حضارة مختلفة ... فخلال أربعة عشر قرنا سقط الدينان في سلسلة خطيرة من الاندفاعات ومعارضة هذه الاندفاعات"¹⁹.

ويرجع هنتنجنون أسباب هذا النمط من الصراع بين الاسلام والمسيحية إلى "طبيعة الدينين والحضارات المؤسسة على مبادئهما ... ومن التشابه بينهما، فكلاهما عالمي، وصاحب رسالة عالمية، يعتقد أصحابها بأنها الدين الحقيقي الواجب على الآخرين اعتناقه، ويؤكد هنتنجنون أن

18 - هنتنجنون، صراع الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، ترجمة مالك عبيد أبو شهيو ومحمود محمد خلف، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان، ليبيا، ط1، 1996، ص 71-72 بتصرف يسير.

19 - هنتنجنون، صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، م.س.، ص 370-371 بتصرف يسير.

العداء والصراع بين العالمين سيستمر لتحديد علاقتهما في المستقبل مثلما حدداها في السابق خلال الأربعة عشر قرناً²⁰.

هذا الطرح المتمثل في "صراع الحضارات" لم يكن هنتنغتون مبتكره، وإنما تلقفه من الأعمال الفكرية للمستعرب الأمريكي برنارد لويس²¹. إذ يعد لويس هو الأول الذي دشّن هذا المصطلح، حيث تكرر في عدد من مقالاته، منها مقال "جذور السعار الاسلامي" الذي نشرته مجلة الأطلسي شتبر 1999، وهو ما يؤكد دالريمبل في كتابه "اكتشاف العرب لأوروبا" الصادر سنة 1982 ومن قبل في 1957 كما يذكر مايلز أي أن لويس دشّن هذا المصطلح قبل مقال هنتنغتون الصادر 1993 بسنين طويلة²².

ولويس لا يمل -في جميع مقالاته- من تكرار فكرة "صراع الحضارات" وإعلان عدائه الكبير إلى الاسلام والمسلمين بحيث تتردد في مقالاته أقوال من مثل: "المسلمون لا يحترمون الضعيف فأروهم القوة" و"اللغة التي يفهمونها هي لغة الوحوش أو لغة القوة الوحشية"²³.

إن أفكار فوكوياما وهنتنغتون، ولويس تتغذى من معين واحد، ونتائجها واحدة مع عرض في المنهج مختلف، تنضاف إليهم أعمال رجال الصحافة ورجال السينما لتزكية أطروحاتهم، وتغليب الرأي العام الغربي برمته واستنفارهم رجال السياسة في العالم الغربي وخاصة أمريكا لإنتاج سياسة أكثر عدوانية اتجاه الإسلام بدلا من الأسلوب الاستعطافي.

20 - نفسه، ص 374.

21 - عن حياة لويس الفكرية ونتاجاته العلمية وآرائه السياسية : راجع م. العربي، الكويت، ع 558، م.س.

22 - حمدي السكوت، برنارد لويس، مرشد عام المحافظين الجدد، مجلة العربي، الكويت، ع. 558، م.س. ص 20.

23 - نفسه، ص 20.

فإذا نحن أمام توجه فكري وتيار معرفي له وسائله ومؤسسته، وله أهدافه التي يعمل من أجل تحقيقها "ويمكن اعتبار برنارد لويس عراب هذا التيار وزعيم هذا الاتجاه"²⁴،²⁵.

ومن ثم لا يجب قراءة الأعمال الفكرية لأصحاب هذا الاتجاه باعتبارها آراء شخصية اجتهادية، بل يجب قراءتها باعتبارها تمثل تصورا استراتيجيا لوضع الغرب في العالم، إنها إيديولوجيا توظف التاريخ ضد العالم الاسلامي، وهذا ما وجد طريقه نحو التحقق مع سياسة جورج بوش الابن "كما ذكرت" "الول ستريت جورنال" في فبراير 2005 نقلا عن مايلز بقولها "الواقع أن إيديولوجيا لويس قد أصبحت سياسة الولايات المتحدة"²⁶.

لنخلص -بناء على ما سبق- إلى التأكيد على أن تجدد الاهتمام بالعلاقة بين الحضارات، وفي قلبها الحديث عن العلاقة بين الاسلام والعالم المسيحي، قد دشنته أبحاث نظرية وفكرية وأكاديمية.

ب- هناك مجموعة ثانية -تفسر صعود الاهتمام بالعلاقة مع الآخر في أبعادها الثلاثة الديني، الثقافي، الحضاري- وهي مرتبطة ارتباطا وثيقا بالوضع العالمي الراهن، إذ شهد العقد الأخير من القرن العشرين تغيرات كبرى في النظام العالمي بعد سقوط المعسكر الشرقي وحلفه وارسو، بذوبان الاتحاد السوفياتي وسقوط الدولة المركزية في موسكو.

24 - حسن أوريد، م.س.، ص 37.

25 - "فهناك لفيف من الباحثين والأكاديميين الذين يغذون هذا الاتجاه في و.م.أ، من الذين يحملون الألقاب الأكاديمية غطاء وذرا للعيون من مثل : دانييل بايب، ومارتن كارمر، وصحافيون أمثال : جيم هوغلاند من واشنطن بوست، وجوديت ميلي وإميرسون من نيويورك تايمز، وتشارلز كروتاتر الذي يكتب في واشنطن بوست والذي رأى في العالم الاسلامي انتفاضة جماعية تهدد الغرب"، عن أوريد، م.س.، ص 39.

26 - حمدي سكوت، م.س.، ص 19.

حيث وجد العالم نفسه أمام نظام أحادي القطبية انفردت فيه و.م.أ، بالمرشح وصول وتحويل مدعومة في ذلك بتفوقها العسكري، وتقدمها التكنولوجي وازدهارها الاقتصادي، هذا الوضع أدى إلى سيطرة و.م.أ ومعها دول أوربا الغربية على العالم، وفرض هيمنتها على كل العالم وخاصة بلدان العالم الإسلامي، من خلال مجموعات من المنظمات والوكالات الدولية.

فمنذ أكثر من عقد من الزمن كتب جاكيس مورغان بجريدة الـ Financial-time ما يلي: "إن انهيار المعسكر السوفياتي قد ترك المجال شاغرا أمام صندوق النقد الدولي ومجموعة السبعة الكبار G7 للتحكم في العالم وخلق مرحلة امبريالية جديدة"²⁷.

هذه مرحلة الإمبريالية الجديدة هي ما يسمى بـ "العولمة" التي تحاول من خلالها و.م.أ وحلفاؤها، فرض نموذجهم الحضاري والثقافي بكل معانيه، أي فرض تصورهم للعالم والقيم، والسلوك المتصل بتنظيم الحياة والدولة والمجتمع، وموضع الانسان في كل من ذلك.

صحيح أن العولمة لها جذور اقتصادية وعواقب سياسية، إلا أن تأثيراتها الثقافية أبلغ وأخطر، الأمر الذي باتت معه مختلف ثقافات العالم مهددة بالزوال والاندثار، ومستهدفة من لدن ثقافة القوة العظمى الوحيدة، ثقافة و.م.أ، على حد تعبير صموئيل هنتنجتون.²⁸

"الشعور بالخطر عن الثقافة الأم من الزوال والاندثار ألهم حماس العديد من الغيورين عن ثقافتهم الأصل بالالتفاف حولها قصد حمايتها من الخطر الداهم الذي يتهدد حصونها، فبرز الاهتمام بالأبعاد الثقافية والحضارية كرد فعل مضاد لرغبة و.م.أ في فرض ثقافتها على العالم"²⁹.

27 - نقلا عن المهدي المنجرة، عولمة العولمة، منشورات الزمن، المغرب، ع18، ط1، شتبر 2000، ص14.

28 - القوة العظمى الوحيدة، عنوان مقاله : لهنتنجتون نشرتها Foreign Affairs بتاريخ 28 مارس 1999، نقلا عن المنجرة، م.س.، ص10.

29 - نادية محمود مصطفى، العلاقات بين الحضارات، م.س.، ص53.

ج-أما المجموعة الثالثة من الأسباب التي دفعت إلى الاهتمام بموضوع العلاقة بين الحضارات وفي قلبها الدين، فهي التحديات التي يواجهها العالم الاسلامي نفسه.

فالعالم الاسلامي وعلى مر التاريخ واجه تحديات عديدة ومختلفة، إلا أن المرحلة الراهنة من التحديات التي تواجه العالم الاسلامي، مرحلة شديدة التعقيد والخطورة لأنها لا ترتبط بمقدرات الأمة الاقتصادية أو فرض قيود عسكرية فحسب، ولكن تتصل بالهوية الاسلامية والخصوصية الثقافية والأبعاد العقائدية الي تمثل المكون الذاتي للأمة الاسلامية.

هذا ما أفصحت عنه مقالة هنتجتون "صراع الحضارات"، حيث قصرت الصراع الحضاري بين العالم الاسلامي والعالم الغربي، وأفصحت عنه مقالة لويس برنارد "جذور السعار الاسلامي" الذي ينم عنوانها عن عداء دفين للإسلام ولحضارته ودينه وقيمه. "هذا الطرح أجج شعور الأمة الاسلامية بالخطر، ونبه مفكروها إلى ضرورة تجديد وإحياء الابعاد الثقافية والحضارية العربية والإسلامية حتى تكون قادرة على مواجهة الحرب الحضارية التي يسنها الغرب ضدها"³⁰.

وبهذا نكون قد أجبنا عن سؤال "ما هي أسباب الاهتمام بموضوع العلاقة مع الآخر"، لننتقل للإجابة عن السؤال الثاني من الأسئلة الثلاثة السابقة الذكر – والمتعلق بموقف الفكر الاسلامي من هذه العلاقة؟ أو لنقل بتعبير آخر ما هي الاتجاهات الرئيسية التي تبلورت في الفكر الاسلامي المعاصر إزاء الموضوع؟.

نشير بداية قبل الإجابة عن هذا السؤال إلى أن ما ميز الفكر الاسلامي قديما ويميزه حديثا، هو غياب رؤية واضحة في موقفه من طبيعة العلاقة مع الآخر، وانعدام خطة موحدة لحل الإشكالات المرتبطة بالقضية، مما أثر سلبا على تحديد سياسة واضحة المعالم تدار في هذا الصدد،

ليجد الباحث نفسه أمام اجتهادات شتى غير محسومة، أدت إلى حالة من الفوضى والغموض والحركة في حلقة مفرغة.

ويرجع هذا الاضطراب في موقف الفكر الاسلامي من العلاقة بالآخر، بالأساس إلى افتقاد الفكر الاسلامي لمنهج أو محددات منهجية ضابطة وحاكمة تمنع من تشتت الأفكار، وتعدد الاتجاهات في موضوع حساس وخطير، يحتاج -أكثر من غيره- إلى موقف موحد ووحيد ينبثق بمراعاة خصائص الأمة الاسلامية التي تمتاز بها الأمة الاسلامية المبثوثة في القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة.

وعليه يتوجب على الفكر الاسلامي تقديم مشروع علمي في الموضوع، يمكن الأمة الاسلامية من مواجهة التحديات الثقافية والحضارية التي تواجهها، ويقدم -بناء عليه- الدليل العملي على أحقية النظرية الاسلامية في مجال العلاقات الدولية للانتصاب كحل ناجع لمختلف المعضلات الكونية التي تواجه العالم³¹.

بعد هذا التمهيد الضروري، نقول إجابةً عن السؤال المنطلق؛ إن موقف الفكر الاسلامي المعاصر من العلاقة مع الآخر، تبلور كرد فعل للأفكار الصدامية التي أعلنها "الآخر" مع لويس، وهنتنغتون... بحيث برز في الفكر الاسلامي، اتجاه هذه الأفكار موقفان:

أولهما: ساير الأفكار الصدامية للآخر، واعتبر العلاقة معه، علاقة عداء وصراع، مادام الآخر يحكم هيمنته الكاملة على مقدرات الكثير من الدول الاسلامية، ويعمل جاهداً بسنه لسياسات مبعثها الاختلاف الثقافي أو الحضاري لفرض سيطرته الثقافية والحضارية واستئصال النموذج الثقافي الاسلامي.

31 - هذا من بين الأهداف الأساسية في بحثنا.

وعليه - كما يرى أصحاب هذا الموقف- فخير المواجهة الوحيد هو: مواجهة العداء بالعداء والصراع بالصراع.

ثانيها: يرفض أصحابه خيار العداء في مواجهة الآخر خوفاً من إصاق تهمة الإرهاب بالإسلام وبالحضارة الإسلامية، ومن تم يرفضون مقولة صراع الحضارات، ويؤكدون على مساحات الاعتراف بالآخر وأفكار التعايش والسلام المتاحة في الإسلام، ولذلك نجد أصحاب هذا الموقف يعلنون من شأن الآخر، ويؤكدون أنهم لا يرفضونه ومستعدون للحوار والتعاون معه، دفاعاً عن الإسلام ورفضاً لتسييس العامل الحضاري والثقافي.

ويمكن تحديد الأطر المرجعية لهذين الموقفين في ثلاثة خطابات فكرية مختلفة هي:

الخطاب الإسلامي - الخطاب الليبرالي - الخطاب اليساري.

فالأتجاه الليبرالي أكثر الخطابات الثلاثة تحمسا ودفاعا عن ربط العلاقة مع الآخر دون أدنى قيد أو شرط. على عكس الخطاب الاشتراكي الذي يقف موقفا معارضا لأي شكل من أشكال الحوار مع الآخر بحجة اعتبار الآخر مصدر الصراع الذي يحول دون إمكانية إقامة علاقة تشاركية حقيقية. أما الخطاب الإسلامي، فيعطي زحما أكبر وحمولة أكثر لتأثير الأبعاد الثقافية والحضارية على العلاقات الدولية، وما يميز هذا الخطاب هو الاختلاف بين مكوناته عن طبيعة العلاقة مع الآخر، أهى صراع أم تعاون؟.

وهي خصيصة مشتركة بن الخطابات الثلاثة، إذا علمنا أن داخل تلك الخطابات "تيارات قد تمتد من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، وتيارات معتدلة متوسطة"³².

32 - سعيد شبار : الإطار المنهجي للفكر الإسلامي. مجلة قضايا إسلامية معاصرة، السنة التاسعة ع. 30 شتاء 2005م، 1425هـ، ص 96.

إذاً فما يميز الخطابات المعاصرة في الفكر الإسلامي إزاء إشكالية العلاقة مع الآخر هو انقسامها وعدم اجماعها على موقف موحد من تلك الإشكالية. ويعد هذا أمراً طبيعياً بالنظر إلى اختلاف تلك الخطابات في المرجعيات والمنطلقات التي ينطلق منها كل خطاب على حدة.

تعدد خطابات الفكر الإسلامي المعاصر، وتضاربها الشديد إزاء إشكالية العلاقة مع الآخر، يعطي الشعور بانعدام منظور إسلامي في تحليل العلاقات الدولية. يتقوى هذا الشعور بإلقاء نظرة سريعة عن مسار تطور دراسات العلاقات الدولية التي "تطورت كظاهرة متميزة في نطاق نظام دراسي منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية، وجاء هذا التطور نتاجاً لإسهام الفكر الغربي أساساً، وتمثل هذه الحالة أحد نماذج التطابق بين مراكز الهيمنة الغربية، ومراكز ومنابع الاتجاهات الفكرية والصياغات النظرية السائدة"³³.

فمناخ التعامل الدولي لا تتحدد طبيعته في مجال العلاقات الدولية إلا بالارتكاز إلى الفكر السياسي الغربي، الذي يمكن التمييز فيه بين أربعة مداخل أساسية هي: "المدخل الواقعي (...)" و"المدخل العالمي (...)" و"مدخل التبعية أو مدخل رفض التبعية (...)" و"المدخل الديني ممثلاً في أقطاب التوجه الأصولي الإنجيلي الأمريكي بالخصوص"³⁴.

فهذه هي المداخل الأساسية التي تفسر بها العلاقات الدولية، وهي مداخل غربية الأصل والنشأة، مما يؤشر عن "غياب أو تجاهل أو إهمال الأبعاد المختلفة للخبرة والتقاليد الإسلامية في

33 - أحمد صدقي الدجاني، العلاقات الدولية في الإسلام، مجلة الاجتهاد، السنة الثالثة عشرة، خريف وشتاء 2001-2002م/ 1422هـ، عدد مزدوج 52-53، ص 114.

34 - محمد وقيع الله، مداخل دراسة العلاقات السياسية الدولية، مجلة اسلامية المعرفة، ع 14، السنة الرابعة خريف 1419-1998م، ص 75 بتصرف.

دراسات المنظور الغربي للعلاقات الدولية سواء على مستوى تاريخ هذه العلاقات أو فلسفتها أو نظريتها³⁵.

ليكتسب تساؤلنا هل من منظور إسلامي في تحليل العلاقات الدولية مشروعية أكبر؟.

الجواب عن هذا السؤال هو: الإيجاب قطعاً، الأمر الذي يصبح معه "توضيح الرؤية الإسلامية لعلاقات الدولية في عصرنا هذا ضرورة شرعية، بل ضرورة وجود وحياة لأمتنا التي لا تزال موضع هجوم وابتزاز، ويستهدف استئصال ثقافتها أو القضاء على نظامها المعرفي"³⁶.

"إن توضيح الرؤية الإسلامية للعلاقات الدولية في العصر الحديث ضرورة شرعية - فقد حدث انكسار في نفسية الأمة، وشرح في معنوياتها، وهي تقرأ ما يكال لقيمها، وخاصة الجهاد من الاتهام، وما يراد للإسلام من تحريف لمبادئه وعقائده وتمييع لأهدافه ليتقارب مع مفاهيم

35 - أحمد صدقي الدجاني، م.س.، ص114.

36 - طه جابر العلواني، مشروع العلاقات الدولية في الإسلام، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط1، 1417هـ/1996م، ج1، ص17.

الحضارة المعاصرة ويتعايش مع الحالة المفروضة حتى ينتهي إلى الذوبان في الحضارة الغربية"³⁷.

الموقع الرسمي للأستاذ
الدكتور محمد الناصري

